المحاضرة الخامسة:

مقاربات تحليل الخطاب

1-عند فان دايك

برزت دراسات الخطاب في المقاربات اللسانية في النصف الأول من القرن 20 على يد: بيسونس وزيليج هاريس وبول ريكور وأصحاب الاتجاه الثقافي النقدي وخطاب ما بعد الكولونيالية[1].

ثم ما لبث أن اكتسى مفهوم الخطاب حمولة معقدة من المعارف والرؤى، حتى صار مفهوما مركبا، مخاتلا، منفلتا من التحديد والتعيين. وهذا حال اللغة عموما، مراوغة، مخاتلة، تختزن قدرة عالية على التمويه والتزيين وتغيير آراء المتلقين، تملك المعنى، وتحتكر سلطة الخطاب، طوعا أو كرها.

-وقد انتقدَ "دايك" فكرة إساءة استعمال السلطة في الخطابات، ورأى أن المعرفة التي لا تحركها غايات نبيلة فهي معرفة ناقصة. فالخطاب يتعالق مع السلطة، ونحن نعرف أنه: طريقة نظر إلى العالم، تنظيما أو تمثيلا للتجربة-الايديولوجيا في المعنى الطبيعي. فمن يملك الخطاب ويوجهه يخلق المعنى، ويبتدع الحقيقة، ولو كانت ملتبسة غير شفافة.

-ويشاكل مفهوم الخطاب عند "دايك" ما أراده "فوكو"، يقول: (الخطاب...ينطوي على منطق داخلي وارتباطات مؤسسية، فالخطاب ليس بالضرورة ناتجا من ذات فردية بعبر عنها، أو يحمل معناها، أو يميل إليها، بل قد يكون خطاب مؤسسة أو فترة زمنية أو فرع معرفي ما. والخطاب أيضا عملية عقلية منظمة متسقة منطقيا، أو عملية مركبة من سلسلة العمليات العقلية الجزئية، أو تعبير عن الفكر بواسطة سلسلة من الألفاظ والقضايا التي يرتبط بعضها ببعض. ولم يعد الخطاب حديثا متساوقا أو مجموعة عمليات فكرية مترابطة أو تحليلا لذات واعية تتأمل وتعرف وتعبر فحسب؛ وإنما أصبح إمكاناً، وشرطَ وجودٍ، ونظاما، وأصبح حقلا تتمفصل فيه الذوات، ومجموعة علاقات تجد فيها مرتكزا له).

-عَمِل "دايك" في كتابه (الخطاب والسلطة) بمقالاته العشر على تفكيك الخطاب من خلال الاستراتيجيات التي اتكأت عليها هذه الخطابات، والتي وإن تنوعت فقد دارت حول بؤرة مركزية هي أن الخطاب لا يحلل بوصفه لفظا مستقلا بذاته فحسب، بل بوصفه تفاعلا موقفيا وممارسة اجتماعية أيضا، وأن السيطرة على الخطاب العام هي سيطرة على العقل العام.

[1] الخطاب الكولونيالي أو الاستعماري هو كل ما قاله المستعمر من قرارات ومراسيم وبيانات وعقود ومعاهدات تقسيم وما إلى ذلك. أما ما بعد الكولونيالي فالغالب فيه مرحلة الاستقلالق الشكلي. يكون في الغالب شروطا قاسية يشترطها المستعمر ثمنا لخروجه.

مقالات الكتاب العشر:

1-الخطاب والهيمنة 2-بُنى الخطاب 3-بُنى السلطة 4-تحليل الخطاب النقدي

5-الخطاب والعنصرية 6-الخطاب وإنكار العنصرية 7-الخطاب السياسي والإدراك السياسي

8-البلاغة الحرفية للحليف الصغير 9-الخطاب والتلاعب 10-السياق في الخطاب البرلماني

هذه المقالات العشر مجتمعة ينظِمها خيطٌ واحد شفاف هو أنّ العلاقة بين الخطاب والسلطة علاقة بنيوية، فينتمي توظيف اللغة والخطاب والتفاعل اللفظي والتواصل إلى المستوى الجزئي للنظام الاجتماعي، بينما تنتمي السلطة والهيمنة وعدم المساواة بين الفئات أو المجموعات الاجتماعية إلى المستوى الكلي للتحليل.

وفي عرضه لهذه القضايا يُدافع "دايك" عن مصالح الفئات المهمشة والأقليات في المجتمع، ولا يقف محايدا، بل ينخرط فيها، لأنّ الحياد هنا خيانة لقيمِ العلم ولدور المثقف الطليعي في الحياة (أو المثقف العضوي بتعبير غرامشي)[1].

-ولعل ما يميز كتاب(الخطاب والسلطة) انحيازه إلى علمية منهجية صارمة، فيفيد من مناهج كثيرة مستندة إلى الملاحظة والتحليل والاستراتيجيات المتنوعة، وتوسيعه مدارات بياناته ودراستها وتقويمها واختبار فرضياته ليصل إلى نظرية معرفية شاملة في فهم الخطاب النقدي.

-ينتقد "فان دايك" المركزية الغربية، ويرى أنها تُقدّم النفس إيجابا، وتقدم الآخر سلبا. وقد اختار لإثبات ذلك عددا من الخطابات التي تفيضُ بهذه الاستراتيجيات المركزية في تجميل الذات وتحقير الآخر.

هذه الاستراتيجيات تصدر عن عقلية تبريرية تتلاعب في الخطاب للوصل إلى مآربها في الهيمنة على عقول المتلقين والفئات المستهدفة من الخطاب، فيلجأ أصحاب الخطاب إلى خُدعٍ وتكتيكات استراتيجية عبر بلاغةٍ وحَبكٍ لخطاب جدلي يتلاعب في الألفاظ، ويقوم باستدلالات مُمَوّهة. وغيرها من الآلات والإمكانات التي تختزلها هذه الخطابات، وُصولا إلى توجيه الخطاب نحو هدف/مسارٍ معين يتطلع إليه منتج الخطاب.

-تكمن أهمية دراسات الخطاب في لبيئة العلمية في أنها تعمل على إيجاد معرفة لا تنحاز إلى فئة دون أخرى، بل تعمل على تطهير العلاقات التي تُنظم المجتمع، فتنهض على ترسيم ميثاق يبسط العدالة والمساواة بين الأمم والشعوب، معرفة لا تقوم على أساس السيطرة والهيمنة، بل قاعدتها التساكن الثقافي والمساواة والعدالة، والأخذ بيد الأقليات والمضطهدين والمهمشين.

[1] المثقف هو المدرك لحركة التاريخ والمحاول تغييرها لصالح الايدولوجية التي يعتقدها ويؤمن بها دون إقصاء باقي الايديولوجيات. المثقف هو الذي يحرك التاريخ، المثقف هو الوعي بالتاريخ.

2-ميشال فوكو

لفوكو (1929-1984) سطوة كبيرة في مجال الدراسات الفلسفية الغربية، ومازال خطابه يمتلك سلطته المؤثرة على فلاسفة الغرب المعاصرين، فهو يمثل ظاهرة في الفكر العالمي، إذ استطاعت أطروحاته أن تُحدثَ تحولات كبيرة في المجالات التي تصدّى لها، من قبيل الفلسفة وعلم النفس والتاريخ السياسي والطب والحقوق...إلخ.

-كثرت الدراسات والمراجعات الغربية والعربية التي تعرضت لفكر هذا الفيلسوف، حتى غدت إشكالية بحدّ ذاتها، لِما أثارته من سوء فهمٍ ومغالطات في عرض أطروحاته وتقييمها.

-اشتغل الباحث المغربي "الزواوي بغورة" (ولاسيما في كتابه "مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو") على طرح المفاهيم الفُوكَوية وإعادة قراءتها وإخراجها وتصويب ما لَبُسَ أو انغلق في الافهام، حيث استطاع التعامل مع أفكار "فوكو" الاساسية وتتبع تطورها عبر مؤلفاته ومقالاته وحواراته. ومرّد الاشكال الواقع حسب "بغورة" هو الاضطراب في فهم العناصر المكونة لمفهوم الخطاب والوظائف التي يقوم بها، والعلاقات التي تربطه بمختلف المفاهيم.

إذن، تتيح لنا دراسة "بغورة" التعرف الى المكانة التي يحتلها "فوكو" في الفلسفة المعاصرة، دون اختزال أو تبسيط أو تجزيئ.

-ينطلق "بغورة" من أن مفهوم الخطاب يُعدُّ مقاربة فلسفية صالحة لقراءة فلسفة "فوكو" من جهة، واستنباط طريقة للبحث الفلسفي من جهة أخرى، وهي مقاربة لا تشكل إجابة على بعض أسئلة فلسفة اللغة فحسب، ولكنها إجابة على جملة من الأسئلة المعرفية والسياسية والأخلاقية.

-كذلك تبيّن لبغورة أنّ الموضوعات الكبرى التي ناقشها "فوكو" (وهي: المعرفة والسلطة والأخلاق) قد تمّ تحليلها بواسطة الخطاب، الذي يتميز عن اللغة والنص والأثر والفرع المعرفي. وذلك ضمن مجالين هما: التاريخ والفلسفة.

-تعرّض "بغورة" لمفهوم اللغة عند "فوكو"، في البحثين التاريخي والأدبي، وفي البحث الفلسفي، مشيرا الى عدم تعرض الدراسات السابقة لمكانة اللغة وموقعها في أعمال "فوكو"، أو للعلاقة بين اللغة والخطاب، وهي علاقة جوهرية أساسية في خطاب "فوكو"، الذي نفى كثيرون ألسنيته، وربما يعود نفيهم إلى أن اللغة لم تحتل مكانة مستقلة ضمن أعماله، بل كانت تناقش في ثنايا الموضوعات الأخرى.

-ناقش "فوكو" في كتابه (الكلمات والأشياء) علاقة الجنون باللغة، فإذا كانت اللغة متصلة بالعقل، والجنون منفصلا عن العقل، فهذا يعني بالضرورة أن الجنون منفصل عن اللغة، أي عن لغة العقلاء. ويتساءل: فما هي لغة الجنون إذن؟. من هنا تعمق "فوكو" في دراسة ظاهرة الجنون، وتتبع لغته على مدار تاريخ الجنون، ورأى بأنها: لغة اختراقية تجاوزية لا عقلانية، وقد تجسدت في أعمال الفنانين والشعراء والفلاسفة اللاعقلانيين (أمثال: دي صاد، نرفال، هولدرين، نيتشه).

-سعى "فوكو" إلى جمع التصورات الجنونية الخاصة باللغة والأدب والفن، والتي يعدها لغة غريبة بكلماتها الخطيرة التي تشكل آلة حربية، لها القدرة على الاختراق والتدمير، دون أن تخضع لقانون، وهي بذلك أداة مقاومة.

-هذه الميزة "الجنونية" نجدها عن شخصيات أدبية كثيرة، مثل الأديب السوريالي "ريمون روسال"، وهذا لما يتمتع به من سرية وغرابة وفُرادة، فقد جمع بين الجنون والكتابة. وكذلك عند "فوكو" نفسه، فقد مرَّ بهذه الحالة في مرحلة من مراحل حياته، ولا سيما في تأويله الخاص للتاريخ الأدبي، ثم إنّ ذلك طابع لشخصيته.

-يرى "فوكو" أن للغة طابعا وجوديا سابقا على الانسان، وهنا تكمن خطورتها، وخطورة أن يُفكر الانسان من خلالها. وقد أودع فوكو كتابة (الكلمات والأشياء) نظرته الفلسفية، وهو كتاب يعكس تصوره عبر مستويات ثلاثة هي:

-المستوى الذاتي والأدبي

-المستوى العلمي والتاريخي

-المستوى الفلسفي

وقد ارتبطت اللغة عنده بقضايا فلسفية كالتناهي والكينونة والانسان. وبهذه النقطة تميز فوكو عن غيره أمثال نيتشه وهايدغر، وذلك بالبحث الأركيولوجي في اللغة، وفي تجارب لغوية خاصة كتجربة الجنون والمرض.

-هذا التصور حول اللغة لم يشكل إلا مرحلة فكرية من حياة "فوكو"، لارتباطه فيها بالأدب وبالنزعة البنيوية في بعض أطروحاتها، انتقل بعد ذلك إلى مستوى آخر من التحليل، هو مستوى الخطاب.

-خصّ "فوكو" الخطاب بكتابين هما: (أركيولوجيا المعرفة) و(نظام الخطاب).

-تحدث "فوكو" عن الوجود التراكمي للخطابات ووظائفها في التاريخ، حيث لا يمكننا الفصل بين دراسة الخطاب ودراسة التاريخ.

-تحدث "فوكو" كذلك عن الممارسات الخطابية وغير الخطابية في التاريخ. وكذلك عن التشكيلة الخطابية.

-تحليل الخطاب عند "فوكو" ليس ألسنيا أو منطقيا، وإنما هو تحليل أركيولوجي جينالوجي.

-سمح تحليل "فوكو" بتأسيس مفهوم جديد للخطاب يركز على بُعدٍ أساسي في الخطاب، وهو بُعد السلطة، أو سلطة الخطاب. وفي الوقت نفسه، بيّن الآليات التي تحكمه وتحدُّ من سلطته، كآليات: المنع والرفض والقسمة وإرادة المعرفة وأشكال التملك والتمذهب. ولتحريره وجب اعتماد بعض المبادئ كالخصوصية والقطيعة والخارجية.

-يرى "بغورة" أنّ "فوكو" أسس المبادئ الأولية لاتجاه جديد في الدراسات اللغوية والتاريخية والفلسفية يقوم على مفهوم معين للخطاب، يتميز بالكلية، وذلك من خلال شبكة العلاقات التي يُقيمها مع موضوعات أساسية في الفلسفة والتاريخ على حد سواء، مثل المعرفة والسلطة والأخلاق.

كذلك يبين "بغورة" علاقة الخطاب بالمعرفة، وعلاقته بالسلطة، وعلاقته بالذات، وهو بذلك إنما يكشف عن الأرضية التي تقوم عليها المعارف في مختلف الحِقب، أو المعرفة التي تحكم مُجمل الخطابات في زمن معين.

-بهذا يؤسس "فوكو" للأركيولوجيا باعتبارها حقل بحثٍ، موضوعه المعرفة، ومنهجه وصف الممارسات الخطابية، كما يؤسس منظورا نسبيا للمعرفة والحقيقة، ويربطهما بإرادة المعرفة والسلطة.

من جهة ثانية، يشرح "فوكو" مفهوم السلطة القائم على علاقات القِوى ضمن استراتيجيات مختلفة، لا تتجسد في مركز أو مؤسسة أو ذات، بل هي ممارسات مبعثرة ومنتشرة على الجسد الاجتماعي كله، فهناك علاقة للسلطة بالخطاب، وبالمعرفة، وبالمجتمع، أو بتصور معين للمجتمع، قائمٍ على الانضباط وسلطة المعيار والمراقبة.

-كذلك بحث "بغورة" في علاقة الخطاب بالذات، من خلال خطاب الجنس والأخلاق والجمال. تناول كيفية تشكل الجنس في الخطاب، وكيف أنّ السلوك الجنسي له علاقة بأحد جوانب الذات، وهو الجانب الأخلاق.

ومن هنا يتم التمييز في فلسفة "فوكو" بين الأخلاق والسلوك، فما يهتم به فوكو هو الأخلاق كسلوك، أي الأخلاق في تحققها وتطبيقها، أو الأخلاق التاريخية التي تخصُّ مجتمعا معينا. وموضوعات متمحورة حول الجنس والجسد. وقد كشف التحليل عن أخلاق يونانية ورومانية تميزت بالطابع الرجولي، وكان هدفها على مستوى الخطاب معرفة الذات وتشكلها كذاتٍ أخلاقية.

وانطلاقا من التحليلات التاريخية والفلسفية التي قام بها "فوكو"، بلورَ مفهوما للذات اعتبرها شكلا غير ثابت، نظرا لتغير العلاقات واختلافها، وهذا ما يسمح بالقول بالتشكّل التاريخي للذات عبر مختلف الممارسات والتجارب، وعبر علاقات المعرفة بالسلطة.

-أمّا على مستوى المكانة التي يحتلها خطاب "فوكو" في الفلسفة المعاصرة، فيرى بغورة أن الموضوع المركزي في هذه الفلسفة ليس تلك التقسيمات بين الذات والآخر، أو بين المعرفة والسلطة والأخلاق، وإنما تحديدا الخطاب في التاريخ، باعتباره طريقة لمعالجة جملة الموضوعات الفلسفية، سواء اللغوية أو المعرفية أو السياسية، معالجةً تاريخيةً.

من هذه النقطة، يرى "بغورة" أنّ مفهوم الخطاب يُعدُّ مدخلا ضروريا لقراءة فلسفة "فوكو"، ومقاربة فلسفية صالحة لمناقشة وتحليل مختلف الموضوعات التاريخية، والقضايا الفكرية والثقافية.